

ورود وأشواك !!!

تقديم

يقولون : البلاغة الإيجاز ... ونعم ما يقولون ، فمن طريق الإيجاز مع الإحكام يأتي الإيجاز ، ولأننا لنطالع في صحف العربية آيات بينات من جوامع الكلم فراها في إيجازها توحى بثنى الأفكار والمعاني ، وكأنما الكلمة الوحيدة المحكمة درة تآلق وتوهج ، فهي لا تزال تبعث بأشعتها وأضوائها متجددة متلاحقة ، وقد تظالعت العبارة الوجيزة أو البت الفذ فيخيل إليك من الإيجاز مع البراعة في التضمين والتلخيص والتركيز أن صوراً متتابعة تنفصل عنه في روعة وبراعة ، ولكل صورة معناها ومغزاها ، أو أن رموزاً كثيرة مطوية تؤمن وتكاد تتبدى ، ثم تجمع من شملها لئلا ينهك حجاب المعنى . والأديب المتفنن قد يلجأ إلى هذا الطي والإيجاز لإظهار براعته ، أو السمو بصناعته ، أو شغل الناس ببضاعته ، أو توقي الأحداث من بيئته . أو لغير ذلك من العلل والأسباب ؛ ومن واجب الذين يشغلون أنفسهم بالأدب وتاريخه وتحليله أن يعطوا ذلك اللون منه ما هو جدير به من بسط الحديث وتشقيق الكلام ؛ ففي ذلك كشف لمساثير كثيرة من شئون الماضي ، وتعميد لطرق البلاغة في القول ، وتعليم لوسائل الاستهداء بهدى أمراء البيان ..

أحمد الشرباصي — المدرس بالأزهر الشريف

أصيص ، وتناجها بتلك الآيات الخوالد :
زنبقة في الآنيه ضحية الآنيه
جنت عليهما غربة الآ ر الأكف الجانيه
وبدلت من سعة الرب وة ضيق الباطيه
يسقونها من جرة بعد العيون الجاريه
يا جارتا شأنك لا يشبه إلا شانيه
لم يبق من ملكي العري ض غير دار خاويه
وكننا ذابله عمنا قليل ذاويه
زال التعميم وفرغ لنا من حياة فانيه
هكذا ناجت السلطانة القديمة زهرتها حين انطفأ سراج
رجائها ، أو هكذا أرادها شوقي أن تقول بتعبير أدق ،
والشعر يطوى في القليل من اللفظ الكثير من المعنى ،
وكانما كانت بنفس الشاعر أو نفس السلطانة لواعج ومشاعر

في الصباح الباكر المشرق الوضاح دفعني قوة قوية
خفية إلى إدارة الحديث اليوم على النحو الذي سידار
وما استطعت حين دفعني تلك القوة إلا ما دفعني إليه أن
أتأني أو أتلبث لأعرف السر أو الهدف ، فقد كنت
كالمسحور يدفعه الساحر ، ومن يدري ، لعلي بعد أن
أستجيب لتلك القوة الخفية ، وأراجع ما أرادت من لون
الحديث ، أدرك ما هناك من سر ، ويدركه معي من يريد !
يرى المطالع لمسرحية مصرع كليوباترا ، التي نسجت
بردتها براعة الشاعر الفرد أحمد شوقي أن كليوباترا بعد أن
أدبرت عنها الدنيا ، وسد عليها اليأس منافذ الأمل ، وأصبحت
نصانع سقلة الجراس ، وقضت عليهما الحظوظ العواثر
والجدود الخواصر بأن تذوق ذلة بعد عزة ، وضعفاً بعد
قوة ، وسجناً بعد حرية ، تنحني على زنبقة محصورة في

توثب لتستغيث في حال بينها وبين ماتريد . ومن يدرى
 لعلها كانت تسير لو ترك لها المجال على النحو التالي من الحديث :
 هكذا الحياة حينما يقل فيها الخير ويشيع الشر، وحينما تغلب
 فيها الأحياء إلى هوام ودواب ، وحينما ينسى الإنسان سيد
 المخلوقات مبادئه القويمة وأخلاقه الكريمة ومنزلته العظيمة ،
 ويغدو بهيمة مهما أن تأكل وتشرب ، وتثور وتغضب ،
 وتظم وتجنحف ؛ هنا ترى القوى يستبد بالضعيف ، والباغي
 يحيف على الهزيل ، ترى الأثرة وحب الذات والأنانية
 والشهوة الذاتية الشخصية العارمة تستبد بالناس ، فلا يحفظون
 حقاً ، ولا يراعون عهداً ، ولا يصونون حرمة ، بل كل
 يقول : نفسى نفسى ، وبعدى يكون الطوفان ... وكل
 منهم يقبل أن يضحي بأهله ومواطنيه ، بل والدنيا جميعا
 في سبيل رغبته وشهوته ولذته ، ولا تقتصر جناية هذه
 الأنانية ولا يسيطر طاغوتها من الأقوياء على ضعفاء
 الناس فحسب ، بل تمتد إلى النبات والجماد ؛ وهذه مثلاً
 زنبقة حزينة تراها سجيئة في آنية صغيرة بمكان محصور ،
 قد حرمت من انطلاق الحدود واستفاضة النور ، وما جنى
 عليها هذه الجناية الآثمة إلا الأنانية الفاحشة والأثرة
 الباطشة ، فقد امتدت الأيدي الأثيمة والأكف المجرمة
 إلى تلك الزهرة الحرة الطليقة ، التي كانت تنمو وتفتح
 وتفيض عطرها وشذاها هنا وهناك ، فانزعجت من جوها
 الطليق ودنياها الرحبية وكونها الواسع ، ثم قيدتها هنا بقيود
 الأسر والاستعباد ، فإلها من مسكينة تستحق الرثاء
 وتستدر البكاء :

زنبقة في الآنية ضحية الأنانية
 جنت عليها غربة الآسر الأكف الجانية !
 لقد كانت تلك الزنبقة بالأمس تستطيل بعنقها ،
 وتفخر برعها وتعالى في الفضاء بزهرتها ، وتأخذ مكانها
 الحرة العالية فوق الرتبة المرتفعة الواسعة ، تتمتع بحريتها
 فتستفيد منها . ثم هي في الوقت نفسه تنفع غيرها وتضفي
 من خيرها على سواها ، فجاءت الأيدي الآثمة فضنت عليها
 بهذه الحرية وتلك المسكاة ، وحسنتها على ما هي فيه من
 نعمة وفصل ، كشأن الأقزام تماماً حينما يغيظهم طول
 العالقة من الرجال ، فيفترون عليهم ويكذبون ، ثم انزعجت
 تلك الأيدي من ربوتها أو سجنها في تلك الباطية الصغيرة

وذلك الإباء المحدود وذلك الإصيص الضيق ، وبذلك
 حرموها من ملك عريض كانت فيه ، ونعمة سابقة كانت
 تغلب بينها ، تأخذ منها وتعطي ، وتنفع بها وتنفع غيرها ،
 كما حرموها من ماء العيون الجارية وسلسيل الجداول
 المتدفق ونمير الأنهار والقنوات ثم أرغموها على الشرب من
 جرة صغيرة ماؤها فيه معنى الضيق والسجن والاستعباد ؛
 وبذلك من سعة الربوة ضيق الباطية
 يسقونها من جرة بعد العيون الجارية

* * *

إبه أيتها الزهرة المسكينة ، إننا شبيهة بمتماثلتان ، أنت
 جارتى في ضيق وسجنى ، نالك ما نالنى ، وألم بك ما ألمنى ،
 ونحن غريبتان طريدتان هنا ، وكل غريب للغريب حبيب
 فكيف بهما حين تتحد ظروفيهما وآلامهما وأحزانهما ،
 وليس ثمة من شأن يشبه شأنك إلا شأنى ، فأنت قد حرمت
 من ملكك العريض الواسع ، وحوربت في حريتك
 وانطلاك ، وجيء بك إلى هنا لتدوق الحرمان بعد
 الاستمتاع ، والتمول بعد النفع والارتفاع ، والنذلة والنزول
 بعد العزة والارتفاع ، وكذلك أنا يا صديقتى السجيئة .
 كنت بالأمس ملء السمع والبصر والفؤاد :

يموتون بي عشقاً ويشقون بالهوى
 فكم من حياة في يدي ومات

ولكن الأقدار أرادتنى على الاختبار الشديد العسير ،
 فذهب الأصدقاء وظهر الأعداء ، وتبدى الغدر وفر
 الوفاء ، وذهب عني ملكي وسلطاني وحاشيتي وأتباعي
 وعشاقى رسولتى ، وصرت أسيرة سجيئة حقيرة ، ليس لها
 من ملكها ولا من سلطانها إلا هذه الدار الخاوية التي لا تغنى
 ولا تسمن من جوع ، فيألى من شقية يمد طول إسعاد :

تعثر حظى بعد طول سلامة
 وأقلع نجمى بعد طول ثبات
 ومن يمشى في ورد الأمور وشوكها
 يعد الخطأ أو يحسب العثرات

أرأيت أيتها الزنبقة الحزينة المسكينة كيف ساقط إليك
 الأقدار صديقة لا تشاركك في المكان والزمان لحسب ،
 بل وتوافقك أيضاً في الأحزان والأشجان وسوء المصير :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقي
غير أن لابقاء للإنسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب
كان في الناس غير أنك فاني !

هذا هو العيب الذي لا عيب بعده يا أختاه، وهذا هو
النقص الذي لا يمكن تلافيه، وهذا هو المصير المحتوم
المنذر المذكر المحذر المؤدب، الذي يجب أن نعتبر به كثيراً
وأن تدبره طويلاً، حتى نخفف من غلوائنا، ونقلل من
كبريائنا، ونحسن الاستعداد لغدنا، ونحاسب أنفسنا قبل
أن يحاسبنا سوانا، فذلك أنفع لنا وأجدر بنا...
نحن زهرات في هذه الحياة يا أختاه، كل زهرة منها
ستذبل وتذوي بعد قليل، وسيزول عنا وعن سوانا
أيضاً كل هذا النعيم، وسنفرغ من هذه الدار العاجلة الفانية
لنتلقى حياة الخلود والبقاء، فإذا الفردوس المقيم، وإما
عذاب الجحيم :

وكلنا ذابلة عمال قليل ذابره
زال النعيم وفرغنا من حياة فانيه !

يا قارئي . . أفهمت ما يراد ؟ قد تقول إنك لم تفهم،
فأقول لك : وأنا أيضاً لم أفهم ؛ فقد كنت كالمسحور
يدفعه الساحر !... فعدرة إليك ! .

أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

◆ المآرب اليسيرة لا تسمى طموحاً، ولكن
الطموح هو الغايات الشاقة البعيدة، ففاضل
وأنت والطلبة، وحارب وأنت ملتي على الأرض
ثم مت أشنع ميتة، فإني لن تموت أبداً .
(بيتشر)

ووضع الندي في موضع السيف بالاعلا
مضر كموضع السيف في موضع الندي
(المتنبي)

يا جارتا شأنك لا يشبه إلا شأنه
لم يبق من ملكي العريض غير دار خاويه
إيه أيتها الزنبقة الأسيرة... لشد ما تثيرني الذكري
وتقتلني اللواعج . لقد كنت بالأمس ملء السمع والبصر
والفؤاد، تصاغ لي أكاليل المدح وطافات الشناء، ويركع
على قدمي الشيوخ قبل الشباب، وفهم من يحينني قائلاً :
سلام السماوات في مجدها على ربة التاج ذات الجلال
تمتت رأسين لا واحداً إذامست الأرض هام الرجال
أطأطأ رأساً لمجد النبوة وأخفض رأساً لمجد الجلال
ولقد كانت الجنود لي . والبنود من حولي، أسمع
الأنشيد وأنشئ منها فأردد :

هو الله فشيدي والمغنون جنودي
والمخاريق التي تحف ق من بعد بنودي
ولديها فارس ملثم شاكي الحديد
يرامى في عنان الـ جو كالبرج المشيد
هو انطيوخ ذكري وطريقني وتليدي
أيها البنتان هذي ليلة العيد السعيد
صلياً مثل صلاتي واسجداً مثل سجودي

ولقد كنت غارقة في النعيم، أمر فأطاع، وأشير فأجاب
وأتحكم فلا يعارضني أحد، وأتمنى فيكون ما أتمناه، أما
اليوم فقد ضاع الملك وخضبت الإمارة، وأبدلني الدهر
خفضاً بعد رفعة، وذلاً بعد عزة، فأصبحت أسيرة وقد
كان الملوك الصيد يمشون في ركابي، وسقاني الدهر كؤوس
الصواب والعلقم، وطالما تمنى الدهاقين أن يقاسموني شراب
لذاقي وخمر مسراتي... آه ما أمر الذكري على العزيز
الذي ذل أيتها الزنبقة الحزينة.. يا ذوات البأساء مثلي ! .

لقد كان فيما مضى أيتها الزنبقة الحزينة سلطان عربي
أموي، اسمه سليمان بن عبد الملك، وكان هذا السلطان
وسيماً جميلاً فارغ القامة منسق الأعضاء جذاب المنظر،
تفجر منه ينابيع الشباب، وتطلع هذا السلطان يوماً إلى
المرأة فأعجبه شكله وأسرته جماله وازدهته وسامته فقل
يخاطب نفسه : أيا الخليفة الشاب... ثم التفت إلى جارية
له كأنه يسألها عن رأيها في شبابها وجمالها، فقرعت سمعه
بالنذر الخفي الجلي، وقالت تحاطبه :